

تاريخ الاستشراق الروسي في القرن التاسع عشر

■ **لورين دو مو**

ترجمة: أحمد عثمان

ف في عام 1876م، اختتمت أعمال المؤتمر العالمي الثالث للاستشراق في مدينة سان - بيترسبرغ، الذي جرى بعد المؤتمرين اللذين عُقدا في باريس عام 1873م ولندن عام 1874م. وكشف هذا المؤتمر عن أصالة الاستشراق الروسي في اقتراحه دراسة الأجزاء الآسيوية من الإمبراطورية (آسيا الوسطى، القوقاز، القرم، سيبيريا الشرقية والغربية). ولذلك قاموا بتجميع المواد الإثنوغرافية لهذه الأقاليم الواقعة في جميع أنحاء الإمبراطورية.

منذ بداية القرن (التاسع عشر) عرفت الدراسات الاستشراقية - التي تمّ تعريفها كجملة معارف الشرق الممتدّ من البحر المتوسط إلى بحر اليابان - انطلاقة جديدة بالملاحظة؛ فقد كتب المستشرقون، واللغويون المتخصصون في اللغات الشرقية - وأحياناً الدبلوماسيون أو المترجمون - الأعمال

■ Lorraine de Meaux, Histoire de l'Orientalisme en Russie au XIXe siècle, Bulletin de l'Institut Pierre Renouvin, n° 14, Automne 2002.



التاريخية، والجغرافية، والإثنوغرافية، والأدبية أو الفيلولوجية. وكشف هذا المؤتمر عن ثراء هذه المنتوجات العلمية؛ إذ عمل على إثبات أن روسيا تستطيع دراسة الشرق، ومن اللازم عليها أن تقوم بذلك.

ومن ثمّ فقد بيّن هذا العمل «الخطاب» المتعلق بالشرق، وابتغى تأثيراً عاماً وتوليفياً على رؤية الشرق في روسيا، الذي يُعدُّ في حد ذاته سؤالاً يلاقي إشكالية الهوية الروسية. تعلق الأمر بكتابة تاريخ هذه الرؤية، مع الأخذ في النظر تعقيداتها. كان الإعداد لهذا العمل ثرياً؛ فقد أسهم في تحقيقه متخصصون؛ كتّاب وشعراء، ورسامون، وموسيقيون، وعسكريون، ودبلوماسيون، ورجال دولة، ومفكرون وفلاسفة. على المستوى التقليدي، تمّ النظر إلى الاستشراق على أنه «خطاب الآخر»، المرتبط بصرامة مع المؤسسات الكولونيالية، والمشارك في بسط «هيمنة» الغرب على الشرق¹. والسؤال: هل من الممكن أن ينطبق هذا التعريف على روسيا، الدولة الشرقية والغربية في آنٍ واحدٍ؟

الشرق منبع الأوهام والغزو

في بداية القرن التاسع عشر لامست أهمية الشرق الذائقة الرومانسية لدى الحضارات البعيدة زمنياً ومكانياً، التي استسلم لسحرها الشعراء، الرسامون، العلماء، والعسكريون والدبلوماسيون. شكّل المستشرقون بمعنى الكلمة دائرة ضيقة من الباحثين، كمتابعين سلبيين للغزوات الكولونيالية، جنوا الكثير من المغانم. فقد عمل ضمُّ أجزاء من القوقاز على تأسيس موضوعات جديدة للدراسة: مع الحكايات العسكرية والنتائج الأدبية، وأسهمت الأعمال على تغذية فضول مواطنيهم تجاه هذا الفضاء. يبيد أن الحكومة كانت في حاجة إلى موظفين إداريين وفي المعارف التطبيقية، فانتظرت تكوين

1- انظر: Tzvetan Todorov à l'Édition Française du Livre de Saïd (Edward), *L'Orientalisme*, *l'Orient Créé par l'Occident*, Paris, Seuil, 1978, 393 p.

المستشرقين «المفيدة». انفجرت الخلافات القائمة بين الجماعة العلمية ورجال الدولة على الوزارات العاجزة عن تعريف برنامج مشترك؛ إذ كانت وزارتا المالية والشؤون الخارجية تفضل قبل أي شيء المترجمين، والعسكريين والإداريين، بينما دعمت وزارة التعليم الاستشراق البحثي؛ لتحقيق أفضل معرفة عن الأقاليم المكتسبة. ومع ذلك، كانت كافة الوزارات واعية بأن مسرح الأحداث الإنسانية انتقل من أوروبا إلى آسيا، وهكذا انفتح النقاش حول الهوية الروسية ودور روسيا في العالم.

رؤية معتمدة عن الشرق: قائمة الثراء والكولونيالية

كانت وزارتا المالية والشؤون الخارجية تفضل قبل أي شيء المترجمين، والعسكريين والإداريين، بينما دعمت وزارة التعليم الاستشراق البحثي؛ لتحقيق أفضل معرفة عن الأقاليم المكتسبة.

بدءاً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كثفت الحكومة الروسية - بمبادرة من غورتشاكوف، وزير الشؤون الخارجية من عام 1856م إلى عام 1881م - نشاطها في الشرق، بإعادة السلام إلى القوقاز، وغزو إقليم أمور وخناتز بآسيا الوسطى، وأجابت الكولونيالية على الرهانات السياسية والاقتصادية، وقد أصبح الاستشراق أداة شرعية. في عام 1854م تمّ افتتاح أول كلية للغات الشرقية في روسيا،

بمدينة سان - بيترسبرغ، حيث كان هدفها سد الحاجات المتنامية لكبار الموظفين والمعارف المتخصصة. بعد الأبحاث التاريخية أو الفيلولوجية، تتابعت الدراسات الأنتروبولوجية، الإثنوغرافية أو الديالكولوجية. أثارت الاستكشافات العلمية - مثل رحلة بريغالسكي إلى أوسوري خلال أعوام 1867 - 1869م، التي مؤّلتها الجمعية الجغرافية الإمبراطورية - شغف الإنتلجنسيا، الواعية بأن الغزو يقع عسكرياً وعلمياً في آنٍ واحدٍ.



الهوية الروسية والاستشراق: مسعى التوفيق

غذّى المستشرقون النقاش الدائر حول الهوية الروسية بتحرير أعمال حول السمات المشتركة بين روسيا والشرق، حول الأصول الشرقية لروسيا، أيضاً، بيّنت هذه الممارسة الثقافية أهمية الشعب الروسي: موضوع الأبحاث الإثنوغرافية. وفي السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر، تضاعف عدد إصدارات التاريخ المعاصر المكرسة عن الشرق وكذا عن علاقته بروسيا.

تطوّرت الأسئلة المرتبطة بأهداف الإمبريالية. ومع إنشاء المدارس المتخصصة في تكوين العسكريين العاملين في الشرق، كرّس معهد فلاديفوستوك جهده، بدءاً من عام 1899م، في دراسة التجارة، والاقتصاد والتنظيم السياسي لليابان وكوريا ومنغوليا ومنشوريا. حتى إن الجمعيات ذات الأهداف التمديدية تطوّرت بدورها. وإلى جانب البعثات الدينية التي بدأ نشاطها في النصف الأول من القرن التاسع عشر تتابعت البعثات التربوية والتحريرية، كما تمتّتها لبيديفا، مؤسسة جمعية الاستشراق في عام 1900م. وهكذا تبدى الاستشراق وسيلة من وسائل مدّ رباط ثقافي بين مختلف طوائف الإمبراطورية.

دراسة حالة: المستشرقون وتاريخ روسيا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر

في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، عرفت روسيا في ذروة قوتها الأوروبية نشاطاً كثيفاً على حدودها الشرقية، ووطدت حروبها المتلاحقة ضد تركيا¹ وإيران² أوضاعها القوقازية، في حين أن (أقاليم) آسيا الوسطى والشرق الأقصى تتباعد عن المركز. وقد استفادت دراسة الشرق من ثلاث قوى دينامية: جامعية، كولونيالية ورومانسية. في الوقت الذي

1806-1812 et 1828-1829.

-1

1803-1813 et 1826-1828.

-2

تمّ فيه عدّ الشرق موضوعاً ذا حظوة لدى روسيا، وأصبحت الأسئلة التي تدور حول ماضيه ملحةً، فطرح بعض المستشرقين سؤال أهمية اللغات الشرقية في تاريخ روسيا: ما المساعي التاريخية التي كوّنت هؤلاء العلماء المستشرقين؟ وما هي إسهاماتهم في تاريخ روسيا؟

من دراسة اللغات الشرقية إلى تاريخ روسيا: عقيدة التجديد هل هي «عقيدة رسمية» عن الاستشراق؟

قام الكونت سرجي أوفاروف بدور كبير في تنمية الدراسات الشرقية في روسيا، وارتبط اسمه بالعقيدة الرسمية للقيصر نيقولا الأول المبنية

في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، عرفت روسيا في ذروة قوتها الأوروبية نشاطاً كثيفاً على حدودها الشرقية، ووطدت حروبها المتلاحقة ضد تركيا وإيران أوضاعها القوقازية.

على «الاستبدادية، الأرثوذكسية والناوردية (الشعبوية)»، منذ كان عمره 24 عاماً في عام 1810م مع «مشروعه عن الأكاديمية الآسيوية». في هذا المشروع اقترح ضرورة أن تعمل روسيا على تطوير دراسة اللغات الشرقية إذ إن «الأهمية السياسية واضحة للغاية، إيجابية للغاية؛ لأنه يكفي المرء أن يلقي نظرة على الخارطة لكي يقتنع بها¹. كذلك رأى أهمية أخلاقية: من الممكن أن تواجه لغة فلسفة

و«تاريخ وسكون» الشرق الانحطاط الأوروبي و«الأنساق الفلسفية الحديثة»². لم يرَ مشروع أكاديميته النور قط وإنما من اللازم الحكم عليه من خلال تأثيره على الدراسات الشرقية وما حققه من مزايا. تقلد القسم البيترسبورغي في وزارة التعليم الوطنية منذ عام 1810م إلى عام 1822م، ثم أصبح مدير أكاديمية العلوم من عام 1832م إلى عام 1855م، وأخيراً تولى وزارة التعليم الوطني منذ عام 1833م إلى عام 1849م.

1 - OUVAROV (S.S.), *Projet d'une Académie Asiatique*, Saint-Petersbourg, A. Pluchart, 1810, 50 p, p. 8

2 - *Idem*, p. 14.



كعاشق للحضارة الهيلينية، اعتقد بوجود روابط بين الشرق من جهة، واليونان وأوروبا من جهة أخرى، ورأى أن لروسيا رسالة في علاقاتها بالشرق. وقد فرض تعليم اليونانية في الثانويات، ودعم المعاهد التي تهدف إلى دراسة الشرق. في عام 1818م، استقبل الفرنسيين شارمو وديماني، اللذين دعاهما لتأسيس أقسام العربية والتركية والفارسية في جامعة سان - بيترسبرغ¹. في العام نفسه، طلب من الألماني فريهن البقاء في سان - بيترسبرغ وشغل منصب مدير مكتب الشرق، المتحف الآسيوي في المستقبل، القسم المتخصص في أكاديمية العلوم. عكس نشاط أوفاروف شغف الجيل الروسي خلال 1820 - 1830م باتجاه الشرق. بدءاً من الجنرالات القادمين من القوقاز إلى الشعراء الشرهين «للروائع المكتشفة»²، مروراً بالمبشرين المرسلين إلى بكين، اتجهت النخب الروسية ناحية الشرق. فهم أوفاروف - وهو لم يزل شاباً - أهمية الشرق لروسيا، نظر إلى الدراسة بروح النهضة الشرقية، وليس كموضوع غرائبي، وحينما وجّه الطلبة الروس إلى دراسة «الجذور الوطنية»، كان في ذهنه الأدب المقارنة وروابط روسيا مع الشرق.

فريهن وشارموا: قائدا التاريخ الاستشراقي

قدّم كريستيان مارتان فريهن (1782 - 1851م) وفرانسوا برنار شارموا (1793 - 1868م) إلى روسيا بالمصادفة البحتة، ووجدوا فيها الظروف الملائمة للدراسة، ولأنهما كانا يمتلكان فضولاً أصيلاً تجاه الشرق، فقد اكتشفا داخلهما فضولاً قوياً لروسيا. مما دعاهما إلى مساءلة الماضي الروسي.

1 - كانت الصينية تدرس في المدرسة الإكليريكية بسان - بيترسبرغ لتكوين آباء الإرسالية الدينية في بكين؛ أي مؤسسي علم الصينية الروسي.

2 - LERMONTOV (Mikhaïl), «Le Démon», *Anthologies de la Poésie Russe*, Gallimard, Paris, 1993, p. 199.

كان فريهن - المتخصص في العربية والتركية - يبلغ من العمر الرابعة والثلاثين حينما اقترح أوفاروف عليه أن يصبح أكاديمياً¹، وأن يتولى منصب مدير المكتب الشرقي. خلال عشر سنوات في قازان قام بتدريس اللغة العربية، قبل أن يرجع إلى روستوك، مدينة مولده التي تعلم فيها الفلسفة الشرقية وعلم المسكوكات. استغل إقامته في قازان في جمع المواد، في عام 1809م كتب أول عمل عن المسكوكات الروسية، وفي عام 1816م أعدّ دراسة وافية عن النقود لدى الخانات والقبيلة الذهبية. كان المتحف - الذي أصبح محافظه - ثرياً في موجوداته، مستغلاً ومفهرساً

بصورة سيئة، فوضع خطة عمله. كان حقل دراسته رحباً، غير أنه كان يعشق دراسة المسكوكات الشرقية مبيّناً أهميتها في تاريخ روسيا، وتخصص طلبة اللغات الشرقية في تاريخ روسيا بحسب نصيحته، وأصبحوا مع الوقت مستشرقين مؤثرين، مثل ب.س. سافليف و.ف. ف. غريغوريف.

اقترح سلقستر دو ساسي شارموا لأوفاروف لكي يدرس الفارسية والتركية في قسم اللغات

الشرقية بكلية التاريخ والفلسفة بسان - بيترسبرغ. وصل برفقة ديماي - المتخصص في العربية والأرمنية - إلى العاصمة الروسية. وفي عام 1821م، غادر الاثنان الجامعة للتدريس والعمل في القسم الشرقي بالإدارة الآسيوية في وزارة الشؤون الخارجية. تخصص شارموا في التاريخ وفرض نفسه على الوسط الجامعي. في عام 1829م حرر وفريهن وتلميذه سنكوفسكي مشروعاً يهدف إلى تأسيس «كلية مستقلة للغات والآداب الشرقية». في عام 1831م دخل إلى الأكاديمية، وقد درس النصوص الفارسية والعربية والتركية حتى يتوصل إلى معلومات عن

**عكس نشاط أوفاروف
شغف الجيل الروسي باتجاه
الشرق بدءاً من الجنرالات
القادمين من القوقاز إلى
الشعراء الشريهين «لروائع
المكتشفة»، مروراً
بالمبشرين المرسلين
إلى بكين.**

1 - *Istoria Otchestvennogo Vostokovedenia do Serediny XIX veka*, (coll.), Moscou, Naouka, 1990, p. 119-121.



روسيا. على وجه التحديد، نشر بداية «إسكندرنامة» لنظامي (الكنجوي)، الذي يستعرض غزو الاسكندر الأكبر لروسيا. في عام 1833م كتب مقالاً: «عن أهمية اللغات الشرقية في تاريخ روسيا». لكنه لم يقدر على تحمل مناخ روسيا، فرجع إلى فرنسا، حيث تابع أبحاثه عن الأكراد والأسر المغولية بعد جنكيزخان، حائزاً على معاش من نيقولا الأول، وظل مراسلاً لأكاديمية العلوم.

المؤرخون المستشرقون في الحياة الثقافية الروسية

قام شارموا بجهدٍ كبيرٍ في تبيين دراسة اللغات الشرقية في روسيا، «التي تفتن عن أي شيءٍ آخر أذهان الشباب الروسي؛ لأن هذه الامبراطورية المحاطة بشعوب السنة قومها بسيطة ولأن كثيراً من هذه الأمم تمتلكها بهجة العيش تحت سلطتها الحامية»¹.

وجّه تلاميذه نحو التاريخ وركز عليه؛ لكي «يثبتوا أن اللغات الشرقية مهمة للغاية بالنسبة لروسيا تحت العلاقة التاريخية، وأنها من الممكن أن تبدد جزءاً من العتبات التي تغلف بتاريخ الأمة الروسية كما تسهم في توضيح بعض النقاط الغامضة في التاريخ»².

تعدّى تأثير فريهن وشارموا جمعية المستشرقين. وسعت إسهاماتهما المنشورة في المجلات غير المتخصصة الصادرة في سان - بيترسبرغ وموسكو دائرة قرائهما، وتمّ نشر أعمالهما واهتماماتهما من قبل ورثتهما المتتبعين: أسهم غريغورييف وسافيليف في «المعجم الانسيكلوبيدي» لبلوشار. عمل بيريزان (1818 - 1896م) - عالم معروف شعبياً - تحت تأثير فريهن، على دراسة تاريخ القبائل التركية والمغولية كما على دراسة غزوات الأخيرة على روسيا، وأسهم في نشر «مكتبة المؤرخين الشرقيين».

1- CHARMOY (F.B.), *Sur l'Utilité des Langues Orientales pour l'Histoire de la Russie*, Saint-Pétersbourg, 1834.

2- *Ibid.*, p. 1 et 2.

بالطبع، اقتربت أفكارهما من منظري عقيدة الجنسية ومؤسستها. كان لشارموا الحظ في مقابلة أوفاروف دائماً، وفي 31 أغسطس 1833م، قرأ بحثه عن «أهمية اللغات الشرقية في تاريخ روسيا» خلال جلسة احتفالية بمقر الجامعة الإمبراطورية في حضور الوزير. كان مفهوم «الشعبوية» يعظم العودة إلى الجذور الروسية: تمَّ إدراج أعمال مدرسة المؤرخين الشرقيين في هذا الإطار، واستغلت (هذه الأعمال) من قبل المؤرخين القريبين من السلطة. في عام 1838م أكد ميشال بوغودين (1800 - 1875م) - أستاذ التاريخ الروسي بجامعة موسكو في عام 1835م، الأركيولوجي

**تعدى تأثير فريهن
وشارموا جمعية
المستشرقين، وسعت
إسهاماتهما المنشورة في
المجلات غير المتخصصة
الصادرة في سان
- بيترسبرغ وموسكو
دائرة قرائهما، وتمَّ نشر
أعمالهما واهتماماتهما من
قبل ورثتهما المثقفين.**

وناشر (مطبوعة) «موسكوفيتان» - على النزعة الروسية لتوحيد الثقافتين العالميتين: ثقافة الشرق وثقافة الغرب، وعدَّ وطنه «ثمرة هذه الثقافة العالمية»¹. أصبح ن.ج. أوستريالوف، زميله (بجامعة) سان - بيترسبرغ - الذي يوقره أوفاروف كثيراً، والذي كتب كتاباً موجزاً عن التاريخ للجامعيين - المؤرخ الرسمي للإمبراطورية الروسية. تقاسم هؤلاء المؤرخون مع المستشرقين همَّ توضيح العلاقات الروسية مع الشرق، وسد ثغرات التاريخ الروسي، وساندوا المشروعات

التوسعية باتجاه آسيا على أساس أنها كبيرة وتمدينية ومصادر للاكتفاء الثقافي. حيَّا فريهن الجبهات العسكرية: «الحملات الأخيرة ضد الإيرانيين والأتراك التي تبلورت من خلال سلسلة من الغزوات في مجال الثقافة، لم يجلب قاداتها - كغنيمه انتصارهم اللامع - مدافع ورايات العدو، وإنما مكتبات كاملة من المخطوطات». (Frähn, XII).

1 - «Lettre sur l'Histoire Russe», in *V Poisskakh Svoego Puti: Rossia Mezhdru Evropeï i Azieï*, - 1
Moscou, 1997, p. 103.



مكانة التاريخ الاستشراقي في نتاج المؤرخين الرسميين الروس منهجية صارمة

بحث فريهن وشارموا عن مصادر جديدة لتاريخ روسيا، يُعدُّ الأول مؤسس مدرسة علم المسكوكات الروسية، كان يشجع العمل الجماعي في دراسة المسكوكات، الأركيولوجيا والنقوش. كتب بالألمانية «نظرة طبوغرافية على كنوز النقود العربية في روسيا»¹، المنشور في «بيتربورجسكييه فيدوموستي» في عام 1842م (الأعداد 235 - 238)، وتابع تلاميذه عمله. كتب غريغورييف مقالاً عن دور النقود الكوفية في دراسة تاريخ روسيا في عام 1842م، وسافيليف بحثاً «عن أهمية دراسة علم المسكوكات والأركيولوجيا الشرقية في روسيا» في عام 1847م. بيّد أن فريهن اهتم أيضاً بالمصادر الأدبية. محرراً قائمة من الأعمال التي وجدها مفيدة في الحصول عليها، أكّد أن الأمر يتعلّق «بمواد جديدة لإيضاح تاريخ روسيا القديم وانتوغرافيتها، أو المواد التي تسطرّ تاريخ المغول، أو من يرتبطون بعلاقات بدول وشعوب آسيا الوسطى المعروفين نوعاً ما، أخيراً من الممكن تسطير (هذه القائمة) لأهميتها الشديدة الخصوصية بنا»².

بالتأكيد، بيّن أن «نماذج السير الذاتية الأرمينية والجورجية تمّ إرسالها إلى دواوين جمارك ما وراء القوقاز»³.

قبل أي شيء اهتم شارموا بنوعية المصادر الشرقية. كتب: «في عصر الملكية الروسية المطلقة؛ أي قرنين ونصف تقريباً قبل نسطور، لم

1 - *Bulletin Scientifique*, 1842, t.9, n°220/221, Cité par *Istoria Otchesvennogo vostokovedenia*, op. cit., p.242.

2 - فريهن. توطئة كرونولوجية لمئات الأعمال غالبيتها تاريخية وجغرافية، عربية وفارسية وتركية، ينقص جزء كبير منها مختلف المكتبات في أوروبا، حيث يصبح من اللازم أن يقيم الأفراد في الشرق بحثاً عن النسخ الأصلية أو المنقولة الوفية، سان - بيترسبرغ، 1834م، معاد نشره في 1841 و1845م، ص XXIX..

3 - *Ibid.*, p. XLV.

يعرف (أحد) بصورة طيبة (العرب)، والدول والشعوب الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين، وكذا سكان ضفاف نهر الفولغا القريبون من المركز. حتى وإن زاروا الأراضي الروسية، لم تسنح لهم الفرصة... لرؤية... مفاوضات هذه الأمة، أو الحصول على معلومات... عن الدول التي تقيم علاقات تجارية معها... الوثائق الراجعة إلى عصر سابق عن نسطور دقيقة وثمانية عن الوقائع التاريخية الروسية التي لا تمنحنا إلا النزر اليسير في هذا الشأن»¹.

أعدّ مدونة عن المؤرخين المفيدين لدراسة التاريخ الروسي:

بحث فريهن وشارموا عن مصادر جديدة لتاريخ روسيا، يُعدُّ الأول مؤسس مدرسة علم المسكوكات الروسية، كان يشجع العمل الجماعي في دراسة المسكوكات، الأركيولوجيا والنقوش.

«أولاً: الكُتّاب العرب الذين اهتموا بإثنولوجيا الروس القدامى، السلاف، البلغار، الخزر،... باشقورتستان، البتشنغ (قبائل تركية من الرحل) إلخ.

ثانياً: الكُتّاب الذين كتبوا تاريخ مختلف الأسر المغولية، وعلى وجه الخصوص أسرة أولوس بدغوتشي، وأسرة الخانات بقازان، وأسرة أستراخان التي انحدرت منها.

ثالثاً: مؤرخو عائلة جيراي بالقرم.

رابعاً: مؤرخو الحوليات العثمانيون منذ عهد السلطان بايزيد.

خامساً: الأدباء المسلمون الذين سَطَّروا تاريخ أوزون حسن - الأمير التركماني الشهير خلال أسرة الخروف الأبيض (قره قوينلو) - والصفويين، والملوك الأفغان لفارس: نادر شاه... وخلفائه، قبائل الزند والقاجار»².

يوقر المؤرخان جيداً مقابلة المصادر: حدّد شارموا بدقة أنه أنهى «مروج الذهب» للمسعودي، بمقابلته بدراسة ياقوت (الحموي)، وذكريا

1- CHARMOY (F.B.), *Sur l'Utilité des Langues Orientales pour l'Histoire de la Russie*, op. cit., p. 8

2- *Ibid.*, p. 2.



القزويني. بيّن أيضاً أهمية الرجوع إلى «الحوليات» الفارسية والعثمانية في كتابة تاريخ الإمبراطورية الروسية «حينما يتعلّق الأمر بالحروب والعلاقات أو المعاهدات القائمة بين روسيا وإحدى القوى الأخرى»، للحفاظ على «الحد الأقصى من النزاهة». كانت نظريته تحمل احتراماً عميقاً لهذه البلاد التي درس منتوجها الأدبي بعمق، وكان يتحدث عن «الإنصاف»، ويطلب بمسعى إيجابي.

مشروع تاريخي

قرأ فريهن وشارموا الاثني عشر جزءاً من «تاريخ الدولة الروسية» لنيقولا كارامزين، المنشورة بين عام 1816م وعام 1829م. ذكر شارموا الكتاب في «عن أهمية اللغات الشرقية في تاريخ روسيا»، غير أنه انتقد عدم رجوعه إلى الكُتّاب الشرقيين. كان يعتقد أن المصادر الشرقية من الممكن أن تكون مفيدة في دراسة روسيا القديمة، والهيمنة المغولية، والعلاقات مع الشرق (خانات القرم في تركيا وفارس)، وتاريخ الإمبراطورية.

عن «الروس»، رجع شارموا إلى «مروج الذهب» للمسعودي (نحو 950 مرة)؛ لكي يؤلف بحثه عن «ذكرى السلاف القدامى»¹، وأيضاً لكي يكمل معلوماته عن الحملة الروسية في بحر قزوين في عام 912م. ذكر شارموا تحديداً وجود حملة أخرى في عام 943م، أشار إليها الشاعر الفارسي نظامي، ولم تذكر الحملتان في حوليات عصر إيغور.

كان تاريخ الهيمنة المغولية مثيراً للجدل²، وفي هذا الشأن كتب شارموا: «كتابات الكُتّاب الشرقيين... ذات أهمية كبيرة بالنسبة لنا؛ لأنهم يستطيعون تزويدنا بمفاهيم دقيقة للغاية عن الأحداث الروسية خلال هذه

1 - CHARMOY (F.B.), *Sur l'Utilité des Langues Orientales pour l'Histoire de la Russie*, op. cit., p. 7

2 - فتح كارامزين النقاش حول «النير المغولي»، الذي نُظر إليه على أساس أنه «كارثة»، مسؤولة عن تخلف روسيا، بينما مانيتسكي اعتقد أن التتار أنقذوا روسيا من أوروبا وأسهموا في الحفاظ على العقيدة الأرثوذكسية.

الفترة الحاسمة، وتعريفنا بتأثير الحكومة المغولية على تأسيس الشعب الروسي ومصيره»¹.

عمل كثير من المؤرخين الشرقيين على هذه الموضوعة. انشغل غريغورييف بموضوع القبيلة الذهبية واتجه إلى منغوليا. في عام 1837م، عرض بحثاً عن تاريخ الشرق في جامعة سان - بيترسبرغ، مما تمّ النظر إليه على أساس أنه تجربة استثنائية وموجزة. بحث التأثير الشرقي على روسيا محرك الدراسات التي تتناول تثار القرم المرتبطين «بالمملوك الروس» منذ عام 1473م.

رجع شارموا إلى «مروج الذهب» للمسعودي (نحو 950 مرة)؛ لكي يؤلف بحثه عن «ذكرى السلاف القدامى»، وأيضاً لكي يكمل معلوماته عن الحملة الروسية في بحر قزوين في عام 912م.

أسهم المستشرقون في التحضير لكتابة تاريخ الامبراطورية الروسية، بإدراج تاريخ الشعوب «المجاورة» قبل السيطرة عليها. كتب شارموا: «إذا... كان من اللازم عدّ تاريخ الشعوب التي سكنت بلاداً مستقلة اليوم عن هذه الإمبراطورية جزءاً متمماً للتاريخ الروسي القديم، وقامت بدور كبير في أحداثها، أو كانت على علاقات قوية أو ضعيفة مع الأمة الروسية... فمن اللازم الاهتمام بعلاقات الرحالة العرب وكتابات مؤرخيهم؛ لأنهم يستطيعون تعريفنا بصورة فضلى بالخزر، باشقورتستان، البلغار، البتشيغ»².

كتب فريهن حول «الخزر» (1822م)، والبشقوريين (1822م)، والروس القدامى (1825م) وبلغاريي الفولغا (1825م)، بالاستناد إلى وصف أحمد بن فضلان (921-922م)³. نظر شارموا إلى «تاريخ جورجيا، أرمينيا، داغستان، شيروان، حران وغيلان التي تحيط بتركيا وفارس كجزء

1- CHARMOY (F.B.), *Sur l'Utilité des Langues Orientales pour l'Histoire de la Russie*, op. cit., p. 14

2- *Ibid.*, p. 8 et 9.

3- *Ibid.*, p. 7.



متمم لتاريخ روسيا». قدّم هؤلاء المؤرخون معلومات عن علاقات روسيا مع جيرانها الشرقيين.

من الاقتراحات إلى الانجازات: أي خطة؟

طوّر فريهن وشارموا وتلاميذهما معارفهم اللغوية للإسهام في تاريخ روسيا، ولم تكن قيمتهم محل أي شك، وبمعرفة عميقة للشرق، كانوا مهمومين بالنزاهة والاحترام لزملائهم من المؤرخين. من الممكن أن نذكّر هنا بوجودين، الذي كتب في بحثه «وصف قصير للتاريخ الروسي مخصص لطلبة دار التربية»، المنشور في عام 1839م: «في عام 1783م، ضمّ الأمير بوتومكين كل القرم: الوكر الأخير لقطاع الطرق المغوليين، وهكذا بلغت قوتنا البحر الأسود». تعبير «الوكر الأخير لقطاع الطرق المغول» لا يمكن أن يجده المرء في كتابات فريهن أو شارموا، فهما لم يبحثا عن إعطاء مصادرهما معنى أكبر لا تحتويه، إلا أنهما عملا على تغذية النقاشات الدائرة حول روسيا، حول التأثيرات الشرقية ونزعاتها الإمبريالية.

وجد الأمل في التجديد الذي حققه المؤرخون المستشرقون ضالته في سطور ساقيليف المكتوبة في عام 1842م التالية: «لا نعرف من هم هؤلاء الروس.... لا نعرف طبيعة العلاقات بين السلاف، الفنلنديين والروس، ولا العلاقات بين روسيا القديمة مع جاراتها من الغرب إلى الشرق، ولا عاداتهم الاجتماعية والعائلية، ولا دياناتهم، ولا مستوى تربية أسلافنا، ولا حتى كيف أو متى وممن جاءتهم عقيدة المخلص. نحن لا نعرف أيضاً إذا كان تاريخنا يبدأ في عصر عبادة ميثرا، في القرن التاسع أو في القرن الحادي عشر»¹.

لا يستطيع المستشرقون الإجابة عن جميع هذه الأسئلة، ولكنهم قاموا بالخطوة الأولى. كلفويين، ومؤرخين، وعلماء مسكوكات، وأركيولوجيين،

1 - Grigoriev (V.V.), *O Koufitcheskikh Monetakh*, p.4, Cité in *Istoria Otetchestvennogo Vostokovedenia*, op. cit., p.243.

ورحالة؛ كانوا بوصلة نشر المعرفة في أنحاء روسيا، البلد المنغلق على نفسه طويلاً، ومن دون شك، نشأ هذا التيار في أعمال العلماء الروس. إذاً أسهم المؤرخون المستشرقون في ظهور مسعى غير انفعالي في دراسة التاريخ الروسي، واستغل دارسو التاريخ السلافي والمستغربون أطروحاتهم، إلا أنهم لم يشتركوا في النقاش. تحققت دراسات فريهن، شارموا وتلاميذهما خلال فترة مفصلية تقع بين رؤية إنسانية لدراسات الشرق ورؤية «حسابية». بدءاً من خمسينات (القرن التاسع عشر) تطورت الدراسات الإثنوغرافية المنهجية التي أدرجت دراسة اللغات والجغرافيا والتاريخ المتعلقة بتقدم الإمبراطورية الروسية. ولكونهما أول من لفت النظر إلى دراسة الأقاليم المتاخمة، فقد أسهما في إعداد ثقافة «عمودية» تهدف إلى الربط بين مختلف أجزاء الإمبراطورية.